مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة باتنة1 المجلد (22)، العدد (02)، (ديسمبر، 2021م)، ص 549- 562
ISSN 1111-5149 / E.ISSN 2430-2588

الغزو المريني للأوراس والزاب من خلال رحلة ابن الحاج النميري (753هـ/1358م) -قراءة في تاريخ العلاقة بين المركز والأطراف-

The Marinid conquest of Auras and the Zabthroughthe journey of Ibn al-Hajj al-Numayri (753 AH / 1358 AD) - Exploring the relationship between the center and the periphery –

عاشور منصورية*،(جامعة باتنة1)achour.mansouria@gmail.com

تاريخ الاستلام	تاريخ القبول	2021-12-02
2020-10-07		

ملخّص

يسلط هذا المقال الضوء على آخر محاولات توحيد المغرب الإسلامي عنوة من طرف السلطان المريني أبي عنان أواسط القرن8هـ/14م، في ظل سياسة قهر الأطراف ودعم المركز، سياسة تبدو فاشلة مقارنة بنمو الزعامات المحلية المستفيدة من الوضع القائم، السلطان يتوغل في الفقر لتأديب القبائل العربية " فرع بنو رياح والذواودة "، ملامح الرحلة السعيدة "الغزوة" تصطدم بمؤشر الصمود الهلالي التواق للتحضر وعدم الاعتراف بالغازي، لمناطق ومدن الأوراس والزاب وأطراف الحضنة، طوبونيميا السلطة الرياحية الرافضة للقهر، والمقاومةِ لأساليب البطش القروسطي " الرهن والأرض المحروقة" وهي قراءة في سياسة انتقال السلطة للهامش ونجاح الولاءات المتناقضة بين الهامش والمركز السلطوي، في الأخير لا بد من الاعتراف أن منطقة الزاب في العصر الوسيط في حاجة لدراسة وتمتين.

كلمات مفتاحية: الزاب؛ المرينيين ؛ بنو رياح؛ نقاوس؛ سلطة المركز

Abstract

The article highlights the last attempts to unify the Islamic Maghreb by the force of Sultan Marinid Abu Annan in the middle of the 8th century AH / 14AD, in the regions of Zab and the periphery of Aurès and Hudna, in the goal of ensuring security and eliminating manifestations of banditry and corruption by the Hilaliya tribes – authority with local leaders, you cannot face marinid power, but he does not consent to it.

The article does not care about the historical event because it seeks to analyze the causes and consequences of the phenomenon. in the light of the multiple loyalties in the history of medieval Algeria, according to a historical approach which tends to follow the phenomenon and extrapolate its results

In the end, it must be recognized that the medieval Zeb needed cultural studies and socio-cultural studies, reflecting its role during periods of history

Keywords : Zab ; Marinid ; BanuRiah ; N'gaous ; Center Authority

* المؤلف المرسل

مقدّمة

عرفت الدراسات التاريخية الخاصة بتطور الجماعات المحلية بتركيبتها القبلية في المجال الجغرافي الذي تشغله تطورا منذ عشرات السنين، وفق مقاربات منهجية واستغلال نصوص ووثائق جديدة كمصدر من مصادر تاريخ المجالات الريفية وعلاقتها بالسلطة المركزية، لقد تم التركيز على الجانب الإثني "العرب –البربر" في التعامل مع السلطة السياسية والعصبية القبلية في إطار الولاء والإنحياز، أو التمرد في حال المساس بالمعطى الثابت سيادة القبيلة وحسن إدارتها للشأن الاقتصادي في جمع الضرائب، في الفضاء المغربي على الأقل.

غير أنه، وبظهور "تحقيق" رحلة ابن الحاج النميري في كتاب مطبوع في نهاية القرن 20م، الموسوم بـ: فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة، وما حملته ثناياه من إضافات طريفة، بشّرت بمعطى جديد زاد من خصوبة المعلومة التاريخية، خاصة ما تعلق بالمغرب الأوسط، وتحديدا بلاد الزاب، في منتصف القرن 8هـ/14م، بإضافات تعد عالية الدقة في تفاصيل بلاد الزاب، وأطرافه المحيطة به، رغم انحياز النص لحركة السلطان.

سنحاول من خلال كتاب ابن الحاج تتبع هذه الأحداث للتعرف على وقائع الزاب المرتبط عادة بالتركيبة القبلية، وهي محاولة ستفضي للإجابة عن أطروحة هل الوجود العربي بعد ثلاثة قرون من تواجده ببلاد المغرب، كانت إضافة حضارية أم شغب وتمرد ونزوع للفوضى؟ تفاعلا مع القراءة التقليدية للمقاربة الخلدونية (ت808هـ/1406م) وما كتبه عن القبائل العربية، ودورها في تاريخ المغرب، والزاب تحديدا حيث طالت مدة إقامته به، شاهدا على أحداثه، (في التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، أو في تاريخه).

سنقيم وزنا لأهمية كتب الرحلة من حيث بيان أهميتها، كما نشيد بكتاب النميري الذي مكننا من معرفة تفاصيل عن الزاب في العصر الوسيط، لا يكتمل ذلك إلا بمعرفتنا للمؤلف وسلطانه صاحب الرحلة، ومعرفة ما ورائيات الحركة أو الغزو لمنطقة الزاب، أخيرا هل كللت هذه الرحلة بالنجاح؟

فأي حوار بين المركز السلطوي والهامش في ظل نمو الزعامات العربية التي وجهت لها سهام التخريب وتهم التمرد؟

بداية، لا بد من التنويه بالدور الذي لعبه الزاب خلال العصر الوسيط، الذي يبرز محوريته في سير الأحداث بلاد المغرب الإسلامي بحكم الموقع الجغرافي؛ إذ مثّل دور الوسيط السياسي مرات، ومنتجا لحركات التمرد والثورة مرات أخرى، كما احتضن الحركات المناوئة للسلطة المركزية، كما أنه أيضا حَضَيً بقاعدة اقتصادية وتباين تضاريسي (الهطاي، 2017م:9)، من هنا يمكننا طرح الاشكالية التالية: هل كان الزحف المريني على الاوراس والزاب غزوا عنيفا؟ أم رحلة سعيدة تخللتها مناوشات وتحالفات إقليمية؟

الأمر الذي يدفعنا لطرح مجموعة من التســـاؤلات عن دوافع الغزو المريني للمغرب الأوسط منتصف القرن 8هـ/14م؟ ولماذا إقليم الزاب وأطراف الأوراس؟

- ما هي المعالم الحضارية والسوسيو- بوليتيكية لأوطان الزاب والأوراس؟
- كيف تبدو علاقة المركز بالأطراف في ظل نمو الزعامات المحلية العربية؟
- ماذا تحقق من إصـــلاح إداري في ظل رفض الأعيان المتحالفين مع نخب اجتماعية اقتصادية من خلال كتاب الرحلة السعيدة؟

إن للموضوع أهمية كبيرة متمثلة في إبراز دور المرينيين في استتباب الأمن في كافة ربوع المغرب الإسلامي إضافة إلى تحليل كتاب رحلة ابن الحاج النميري، ومكانتها في إبراز المواقع الجغرافية وخط سير الرحلة ومختلف القبائل التي مر بها.

ونظرا لطبيعة الموضوع يتحتم علينا اتباع المنهج التاريخي من خلال سرد أحداث الغزو ورحلة ابن الحاج، إضافة إلى المنهج الجغرافي الوصفي، الذي يقدم لنا وصفا مكانيا رائعا، دون أن نغفل المنهج الأدبي باعتبار الرحلة نوعا وفنا أدبيا.

أهمية كتاب فيض العباب وقيمته التاريخية

يكتسي هذا الكتاب أهمية كبيرة في نظر الدارسين؛ نظرا لما يقدمه من إضافة جديدة خاصة ما تعلق منه بالتاريخ الأدبي والحضاري، وقد ازدهرت كتب الرحلة في العصر المريني وخلال القرن8هـ/14م(الشاهد، 1990م،ص ص:59-85)، فعُدَّ كتاب الحركة السعيدة من حيث مضامينه التاريخية السياسية والعسكرية، فضلا عن إبراز المعالم الحضارية والعمرانية الدالة على رسوخ التمدن في الأطراف، وما تعلق من كيل التهم ضد الأعراب من بني رياح والذواودة أسياد الزاب وأطراف الأوراس والحضنة؛ التي مثلها شخص رئيسها يعقوب بن علي بن أحمد الرياحي(ت790هـ/1390م)، علما بأن هذا المجال الجغرافي كان ولا يزال حلقة وصل بين أطراف المغارب على مرّ التاريخ؛ إذ ينفتح وقتها شرقا على تونس الحفصية ليمد وصاله لبني زيان العبد -وادية بتلمسان، وتتسع دائرة العلاقة نحو نهاية المغرب المريني، الذي قام سلطانه بهذه الحركة السعيدة" الغزوة" على قسنطينة والزاب. في أجواء الاضطراب، والصراع التي تحكم هذه الكيانات السياسية، في حين يبدو التوسع المريني على المنطقة الشرقية آخر ما تبقى من تجسيد للفكر الوحدوي الإمبراطوري، الذي يرفضه التاريخ ويعضده الواقع الفقهي والاقتصادي والاجتماعي.

شهد ابن خلدون الأحداث التاريخية في هذه الرحلة "الغزو"، وعايش توتراتها، كما سجل ملاحظاته، التي بنى عليها نظريته في العصبية والملك، مثلا في تاريخ التفتت في مواجهة سيطرة المركز وإجلابه على الأطراف؛ بغية تحقيق وحدة سياسية توسعية، على أساس تصحيح أوضاع طارئة باستعمال القوة العسكرية، غير أنه لم يكتب عليها بهذا التفصيل الذي نجده عند ابن الحاج النميري، الذي جعلناه شاهدا كاتبا في هذه الرحلة لسيده السلطان أبو عنان المريني؛

فهل نصدق ما أبداه الكاتب من تحديد لأهداف الرحلة، أم أن هناك أهدافا مبطَّنة أبى الإفصاح عنها؟

إن فعل معاينة الحالة " الحادثة" يستوجب معرفة أوضاع المغرب وعلاقات الكيانات السياسية خلال القرن(8هـ/14م)، ثم تسليط الضوء على الكتاب "نص الرحلة"، والتعرف على كاتبها، وعلى منفذ الرحلة السلطان المريني أبو عنان، بالتركيز أكثر على المجال الجغرافي "الزاب وأطراف الأوراس والحضنة"، في دائرة البحث النقدي للفكر السياسي الإسلامي المؤسس على إضعاف الأطراف واستبعادها وتدعيم المركز واستقطابه، وأولوية الثاني على الأول.

أوضاع الغرب الإسلامي خلال ق8ه/14م

تتعلق أطوار الأحداث في منتصف القرن(8هـ/14م)؛ حيث سمة التفتت والاقتتال برسم فرض السلطة في وراثة للعرش الموحدي من طرف حكام بني مرين في بلاد الغرب الإسلامي، وتصارع الأسر الحاكمة فيه، فكانت مظاهر العداء لا تهدأ، والصراع بينها لا ينقطع، مما أدى إلى توتر العلاقات بين أمراء بني مرين وبنو حفص وبنو زيان.

لقد عاش ابن خلدون في القرن (8 هـ/14م)، وهو منعطف يوحي في كليته بانحطاط في حضارة المسلمين، المتسمة بالتقهقر والتراجع في مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فكان نصيب المغرب من هذه الفوضى والاضطرابات التي أدت إلى تناحر الأسر الحاكمة (عاصي، 1991م: 61).

الأمر الذي يوضحه ابن خلدون من خلال قوله: " وأما لهذا العهد، وهو آخر المائة الثامنة، فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه، وتبدلت بالجملة، واعتاض عن أجيال البربر أهله على القدم بمن طرأ فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب بما كسروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الأوطان، وشاركوهم فيما بقي من البلدان لملكهم. والمنازل..... (ابن خلدون، ج1: 33).

فكان هذا القرن من الناحية السياسية قرن تفكك الوحدات السياسية الكبرى مشرقا ومغربا، وذلك بفعل هجمات البدو التي زادت حدتها على الأطراف، فكانت الحروب بين الدويلات والإمارات لا تهدأ، والمطالبة بالملك لا يستند إلا على القوة والشوكة والأتباع (عاصي، 1991م:62)

وتطورت الأوضاع إلى أن شهد المغرب خلال هذا القرن(8هـ/14م) قمة التفكك السياسي وظهور أوضاع شاذة وتحالفات عجيبة، فالمرينيون في شرق المغرب الأقصى تحالفوا مع الحفصيين بتونس ضد بني عبد الواد بالجزائر(المغرب الأوسط)، وإذا كان سلطان المرينين أبو الحسن قد استطاع توحيد بلاد المغرب كلها، هذه الوحدة فشلت أمام قوة وطموح القبائل الهلالية التي عمد المرينيون إضعاف نفوذها وتقليص امتيازاتها الاقتصادية (عاصي،1991م:67)، فكان الغزو الذي استبدل بمصطلح "الحركة السعيدة"، وقد اعتبرت في

المصادر التاريخية بأنها غزوا قام به أبو عنان المريني، انتهت بفتح تونس وقسنطينة (السلاوي، ج3:201)، كما نسبت الحركة لمن سبق أبي عنان في حملاتهم التوسعية أيضا، التي هي نشاط عسكري اعتيادي يقوم به السلطان بنفسه مستعرضا قواته التي يحاول بها إخماد الثائرين وتأديبهم.

التعريف بابن الحاج النميري ورحلته فيض العباب

هو إبراهيم بن عبد اللّه بن إبراهيم النميري، ابو القاسم المعروف بابن الحاج، أندلسي، من كبار الكتاب، ولد بغرناطة في (713هـ/1313م)، وبهذه المدينة نشأ وتعلم حتى عُدّ من كتابها المشهورين، بل من كتاب سائر الغرب الإسلامي البارزين، وارتسم في كتاب الإنشاء سنة 734 هـ، ثم رحل إلى المشرق فحج وعاد إلى إفريقية فخدم بعض ملوكها ببجاية وخدم سلطان المغرب الأقصى، وانتهى بالقفول إلى الأندلس فاستعمل في السفارة إلى الملوك، وولي القضاء بالقليم بقرب الحضرة، وركب البحر من المرية سنة 768هـ رسولاً عن السلطان إلى صاحب تلمسان السلطان أحمد بن موسى، فاستولى الفرنج على المركب وأسروه، ففداه السلطان بمال كثير.

كانت وفاته بعد(774هـ/1373م)، حسب محقق الرحلة محمد بن شقرون، (ابن الحاج،1990م:27)، كما أجمعت كتب التراجم على علو كعبه في العلم والكتابة " فهو نار على علم، وبدر في ظلم، أحيا من آثار السلف ما سلف"، (ابن الخطيب، د ت :343) كما عرف أيضا بأنه:" الإمام الفقيه الرحالة، الصدر المحدّث الراوية العلامة، عالم وقته ومحدّث زمانه، لحق بكتاب الحضرة ومشيخة الكتاب، خلص للمولى أبي عنان، فكان كاتب سرّه"(ابن مرزوق، 1980م، ص ص:307، 308)

له شعر جيد وتصانيف منها)المساهلة والمسامحة في تبيين طرق المداعبة والممازحة)، و(تنعيم الأشباح في محادثة الأرواح)، ورحلة سماها (فيض العباب، وإجالة قداح الآداب، في الحركة إلى قسنطينة والزاب) التي هي مدار بحثنا.

ب- أما كتابه " **فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في وصف الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، وفيها** من السجع على عادة كتاب العصر ما هو رائق، تعمد من خلاله" الكتاب" الذي هو وصف لحدث تاريخي سياسي وعسكري تمثل في الغزوة التي قادها وخطط لها ونفذها سلطان بنو مرين أبو عنان(729-759هـ)، بنفسه مكتسحا المغربين الأوسط والأدنى، لفرض وحدة سياسية قسرية، يبتغي نشر الأمن، وإخماد الفتن وتأديب العرب الهلالية، فكان توقيتها ما بين(758-759هـ)، فانطلقت الرحلة من فاس، وصول إلى قسنطينة، ثم بلاد الزاب، فعودة لقسنطينة، ثم العودة الاضطرارية نحو فأس.

والقسم الذي جعلناه ميدانا استشرافيا لدراستنا، الذي نهدف من خلاله عرض نظريتة السياسية الشمولية للفكر الإسلامي؛ التي تركز ثقل اهتمامها على إخضاع الأطراف للمركز في

المجال الجغرافي الذي أصابه الغزو في " **أطراف الأوراس: باتنة، لميس، القنطرة، فرفر، نقاوس، مدوكال، سفيان، فنقاوس ثانية، مقرة**، ثم قسنطينة ...".

لقد شكل إقليم الزاب موضوعا ثريا لعديد الدراسات ذات القيمة المتفاوتة، كما اعتبر مصدر اهتمام من طرف الدارسين؛ فجغرافية إقليمه التي أبرزت دوره الهام في تاريخ المغرب منذ الفتح الإسلامي، فتحت شهية الدراسات التي سعت للاهتمام بنص الرحلة؛ على قلتها مستفيدة منها في مختلف الحقول المعرفية، وما اتصل بالتاريخ السياسي الحدثي أساسا؛ متخذة في ذلك اتجاهين؛ الأول يهتم بالحدث الذي يحفل به الكتاب، والثاني يهتم بالنص وبنائيته.

سعى الكاتب للتعريف بأهمية نص الرحلة في شكله المكتوب بعد ظهور ومقارنته بباقي الرحلات المغربية في العصر المريني في ثلاثة أجزاء؛ حيث أدرج التعريف برحلة ابن الحاج النميري في الجزء الثاني، واعتبرها من الرحلات الرسمية (الشاهدي، 1990م:561)، وهي في نظره حركة تأديبية تستهدف أعراب المناطق الشرقية، وضم قسنطينة لسلطانه، كما رام السلطان من حركته هذه توحيد الأمة وتأمين طريق الحج، برفع الظلم وتحقيق العدل. (الشاهدي، 1990م:563). وقد نبَّه الكاتب إلى بعض ثغرات المخطوط، وما كان فيها من ضياع أو نسيان، مبديا أسفه بخصوص بتواريخ الأحداث المفقودة.

الأمر الذي دفع بالباحث علاوة عمارة إلى تتبع تحول مجال الزاب وتطور الطوبونيميا بالدراسة والتحليل، كما استعرض التركيبة البشرية وأسباب تحول السيادة البربرية إلى العربية الهلالية في منتصف ق5هـ/11م، التي امتلكت المجال والسلطة، وهي نظرة يرقى بها الدارس إلى كون الرحلة أبانت عن التغير الحاصل في المجالات الحضارية لدى الهلاليين الذين امتلكوا "ذوقا حضاريا بعد الاستقرار فكانت قصورهم " لدى بني رياح الهلالية" التي توسعوا في بنائها ها هي تتعرض للطمس والتهديم، نكاية في عصيانهم (عمارة، 2016م، ص ص:12-21).

في حين استفاد من كتاب الرحلة الباحث الصادق زياني، من خلال موضوعه جغرافية العمران ببلاد الزاب من خلال فيض العباب، في موضوعه (زياني، 2018م، ص ص:559-577)،وأفاد منه في دراسته التاريخية شبه أثرية، من خلال استعراض الشواهد الأثرية والمعطى التاريخي للتعرف على النسيج العمراني الزابي، معتبرا التراث الهلالي من بني رياح وآثارهم المعمارية منافيا لطروحات التخريب المنسوبة إليهم، على أنّهم أقاموا قصورا ومنتجعات ضمن المجال الزابي، وأطراف الأوراس فالقنطرة، ثم فرفر، تليها بسكرة، قاعد التحضر لبني مزني، وصولا إلى سفيان (زياني، 2018م:561)، والدراسة بقدر طرافتها فهي اشتغال على الطوبونيميا والمنجز المعماري الأعرابي، وهو في حد ذاته ثري بما احتوته من قصور وقصبات، وحصون وقلاع، كما وظف المنهج الوصفي في إبراز الهندسة المعمارية للمنجز المعماري، وخلص إلى نتيجة خطيرة مفادها؛ أن ليس كل عرب المشرق بدو مخربة!! ، ففرع بنو رياح الذين هم أسياد الزاب بنو قصورا أدهشت حتى ابن الحاج نفسه وإقرارا منه

فيها يقول:" وحفت بهذا القصـــر جنات تعرف في وجوهها نظرة النعيم وحدائق تســـهل ألفات غ صونها أل سنة الن سيم.....(ابن الحاج، 1990م:414)، كما كان بنو مزني ممن أ صبغ ب سكرة بلون تحضـــرهم بعد اســـتقرارهم ببســـكرة وقد دون لها ابن خلدون حيث مقامه هناك في حاضرة وبلاط بني مزني وأرخ لهذه الأسرة العربية الهلالية.

كما انتهج الباحث (بلعربي، 2015م، ص ص:54، 63) في دراســـته التاريخية مبدأ الغزو المريني لمدينة قســـنطينة، قصـــد بســـط نفوذ الســـلطان المريني على المدينة التي اعتبرها مهمة في تاريخ المغربين الأدنى والأوســـط وهي المتنازع عليها، وقد أحكم الباحث في إبراز أهمية النص التاريخي، مســتعرضــا الأوضــاع الســياســية الســائدة في المنطقة خلال القرن (8 هـــ/ 14م)، فيما ا ستعرض جهود ال سلطان المريني في إخ ضاع المدينة، التي لم تكن لتقبل بالســـيطرة المرينية، بدليل بقاء واســـتمرار بعض جيوب المقاو مة (بلعربي، 2015م:56)، التي ا ستمرت ماثلة في النخبة القسنطينية. ومهما يكن من شيء فإن الدرا سة أبانت بشكل لا يرقى إليه الشك، أن سقوط مدينة قسنطينة في أيدي المرينين، قد أنساهم مشـــروعهم الوحدوي في الاســـتمرار في مســـارهم نحو تونس، لما رضـــوا باســـتقبال الوفود المبايعة دون تســـيير الجيش لإخضـــاعها (بلعربي، 2015م:59، والنميري، 1990م:346)، وهو ما يورد عنصـــر القيمة التاريخية والجغرافية والســـياســـية لمدينة قســـنطينة، ليختم الباحث درا سته بإظهار مبالغة ابن الحاج النميري، في جعل ال سلطان المريني أب عنان كمنقذ لمدينة قسنطينة من الأعراب و إفسادهم لها، وهو أمر يرفضه الواقع والتاريخ (بلعربي، 2015م:62).

ونظرا لأن الطابع الأدبي والبلاغي هو الغالب في هذا المصنّف؛ فقد كان مجهود الباحث (زردومي،2005م، ص ص:269- 292،) الذي عالج الرحلة من منظور أدبي، أي اشـــتغال على النص، في إبراز تقنيات الســـرد في رحلة فيض العباب، مشـــتغلا على التاريخ ثم الآداب في تفاعل منطوق النص باســـتحضـــار آلياته، دون الابتعاد عن الســـياق التاريخي اعتبارا أن نص الرحلة وثيقة تاريخية مهمة (زردمي، 2005م:269).

إن منطقة الزاب هذا المجال الذي يمتد عند بعض الدارســـين المعاصـــرين؛ من تبســـة شرقا إلى المسيلة غربا، يحدها من الشمال سلسلة الأوراس، وتمتد إلى وحات جنوب بسكرة الواقعة على طريق ريغ (عمارة، علاوة، بين جبل الأوراس،)، وفي جغرافية المنطقة، فإنها تتمحور في نطاق الزاب الغربي؛ الذي يقع حول طولقة، (ابن خلدونّ، ج6، 1988م:588)،ويمتد من جهة الحضـــنة وجنوب منطقة الأوراس في اتجاه واحات منطقة بســـكرة ، وخلال القرن (8هـ/14م)الذي كانت فيه هذه الرحلة "الغزو"، يمتد ليشمل سهول الحضنة وتدخل في نطاقه مدن زابي والمسيلة ونقاوس، ومقرة وطبنة، وطولقة (Cambuzat,1989,pp337,338)، وهو تقسيم متفق عليه من طرف (برونشفيك والدشراوي وروجي اريس) (لهاطي،2017م:16).

التعريف بالسلطان المريني أبو عنان

من خلال استعراضنا للكتاب " الرحلة السعيدة"، وأوجه الاستفادة منه من طرف الدارسين، وجب علينا التعريف بالسلطان الذي يوصف الحزم والذكاء والشجاعة، فلقد قضى على الفتن الداخلية، وأوقف العداء الخارجي المسيحي، بقوة جيشه ووفرة أسلحته، فحقق استقرارا داخليا ووفر له أسباب الأمن، ومنهما لاحت بعض ملامحه في رقي اقتصادي، عندها ولى شطره شرق المغرب باذلا جهودا مضنية، يروم من ورائها وحدة المغرب الإسلامي تحت رايته، فوظف فيها قوات هائلة برية وبحرية (ابن الحاج، 1990م :88). وكان شُغْله وأكبر عقبة تواجهه هي إفساد الأعراب في افريقية والزاب التي تشتغل عليها الدراسة، مع ما كان من تقاطع بين نظرة الكاتب وابن خلدون، حول تصرفات الهلاليين، (ابن الحاج، 1990م:89)، وهذه الغزوة أو الرحلة السعيدة للسلطان نحو بلاد المغرب الشرقية، تعد من قبيل الرحلات الأمنية؛ إذ يرى أنها ضرورية لإقرار أمن الساكنة التي تعاني من انعدامه كما في قوله" ...وسوف نجعلها إن شاء اللّه للآمنة قرارا، ولجميل الإدارات دارا، ونأخذ من عربها الذي ثار بغيهم ثأرا"(ابن الحاج، 1990م:9).

الغزو المريني للزاب وأوطانه

التحولات المجالية

في حدود القرن (4هـ/10م)، كان الزاب منطقة متعدد الإثنيات والثقافات والمذاهب داخل نفس الدائرة المشتركة من القصور المشكلة لنمط المدينة الواحدة، فيما شهد الزاب تحولا على عهد الأمير الحمادي الناصر بن علناس(454هـ/481هـ)، الذي أباد أسرة بني رمان، ذات الأصول البربرية انتسابا، جراء انتزائها ببسكرة؛ فقسم الزاب إلى قاعدتين، الزاب الأعلى وقاعدته نقاوس، تكفل بتسييرها أحد أفراد العائلة الحمادية، فيما كانت قاعدة الزاب الأدنى بسكرة ن تسيرها أسرة بنو سندي الزناتية (عمارة، 2016م:16،15)، لكن الهجرات الهلالية للمغرب الأوسط وتفضيلها مناطق الزاب جعلها تحصل على مغتصبات زراعية ومجالية، توارثها أجيال من العرب الهلالية الدين أخضعوا الجماعات المحلية البربرية من خلال المغارم، فتحولوا إلى جهاز سياسي ومالي في الوسط الريفي، أداروا مجالات جغرافية واسعة ليخضوا بالإمارة كحال أسرة بني مزني(، علاوة، التحولات المجالية، 2016م:17)، إن سيطرة العرب الهلالية نجد صداه عند الجغرافيين أمثال الإدريسي؛ إذ يتعرض لذكر حصن بادس العامر بأهله والذي تملكه العرب، وهو في الأصل حصن بربري، كانت العرب "تمنع اهله بالخروج منه إلا بخفارة رجل منهم "، كما تحولت مدينة بغاي من مدينة كبيرة إلى مفسدة للعرب، لما آل الأمر لمشيخاتهم في قبض المغارم و الجبايات والتصرف بشؤون المدينة (الإدريسي، نزهة المشتاق،م1، 1989م،ص:264).

إن التحول الجغرافي والقبلي من بلاد زناتة إلى بلاد رياح، في القرن(7هـ/13م)، جاء بعد تعرض ممتلكاتهم الزراعية إلى اغتصاب متتابع من قبل الهلاليين في إفريقية والزاب، والمغرب الأوسط أيضا؛ فقد فقدت زناتة سلطتها، وعجزت عن الدفاع عن ممتلكاتها (ابن خلدون، م6،2006:16)، كما تحولت تسمية الزاب الغربي إلى اسم الحضنة للدلالة على مناطق المسيلة ومقّرة ونقاوس.

وحين تصل جموع المرينين للزاب منتصف القرن(8هـ/14م)، في الغزو؛ الحركة السعيدة بعد قسنطينة التي إخضعوها، كان مقصدهم مواطن عرب بني هلال فرع بني رياح، الذين انتقلوا من حياة نصف بدو- ريفي، إلى حياة الاستقرار والإقامة بالقصور والقصبات، فشكلت القصور إحدى أهم المعالم العمرانية التي استحكمت في المجال الزابي بالمناطق الممتدة من قصر لميس وباتنة، وطولقة، وحصون فرفر، وبسكرة وسفيان ثم نقاوس التي اتخذها السلطان مقرا له) ابن الحاج، 1990م:454-457).

توجه الركب لطولقة في رمضان (758هـ/1357م)، ودخل حصن فرفر في 23رمضان من نفس العام 758هـ/8سبتمبر1357م، والحق به أذى وخربه وطمر مياهه واحرق نخيله،(ابن الحاج، 1990م:445-450) ودخل حاضرة نقاوس في 28 رمضان،13سبتمبر 1357م، اتجه صوب مدوكال في 30 من نفس الشهر والسنة، وقد جعل نقاوس مقر المحلة السلطانية وبها صلى صلاة الفطر،(ابن الحاج ،1990م،ص:457)، كما عمل على هدم آثار العمرانية لسفيان ، وتغوير مياهها وحرق بساتينها نكاية بعرب بني رياح، كما استوسق من مقّرة، وشفع ابن مزني وحمى زراية من الحرق والتدمير، الذي طال حصون ريغة في جبالهم شمال نقاوس ، وبعدها غادر المرينيون نحو قسنطينة في 9شوال، ومنها أقفل راجعين لفاس برّا والتي دخلها في غرة ذي الحجة 758هـ/1357م.(ابن الحاج، 1990م، ص: 461-471)

بين سلطة المركز ونمو الاطراف: أي حوار؟

يتعلق الحدث التاريخي برصد حركة في تاريخ الأمم، في سياسة الغزو من طرف دولة المركز "النظام الإمبراطوري، لغرض تأديب "الطرفداري"، من شاكلة العرب الهلالية ، وهو بذلك يبحث هذا النظام "المريني"، بتجديد ذاته بخلق قدرة سياسية غريبة اعتبرت تفوقا، ولتنفيذ الفكرة وتحقيق شروط نجاحها؛ فقد رصد لهذه الحركة إمكانيات مادية وبشرية ولوجيستكية برية وبحرية ، لجيش زُود بعدّة وعتاد استغرق في وصفها صاحب الكتاب (ابن الحاج، 1990م،ص:161،160)،فحركته بهذا لا تعني التجديد بتاتا بل تدخل في إطار التكيف بأدوات تقليدية موغلة في الأذى الذي يلحقه بالثائرين المتمردين؛ بحسب رأيه، والناقمين على سياسته والرافضين لها من عرب بني رياح؛ فعمد إلى شل حركتهم وإكراههم على أمر واقع ؛ إذ طالبهم بإحضار الرهائن من الأولاد و الإخوان، كي تبقى في يد السلطان لضمان الخلاص والوفاء(ابن الحاج، 1990م:387) ، ويضمن السلطان استقامة أمرهم ويدخلون في

طاعته، بنبذ سوء عملهم من إخافة السابلة، وقطع الطرق،(ابن الحاج، 1990م:388)، وهي تصرفات ما كانت لترضي زعيم رياح يعقوب بن علي، الذي اعتبر قبض الرهائن منهم، ومنعهم جمع الضرائب انتقاصا من سيادتهم فقابلوها بالرفض (ابن خلدون،ج6 2006م:472) .

إن محاولات الوحدة السابقة التي تم خلالها تدعيم المركز وتقويته، عن بإضعاف الهامش، تضاف للمحاولات التي فشلت من قبل(الموحدية، و أبو فارس جده)، فتعد هذه الحركة النزاعة للغزو نظاما متجذرا في الفكر السياسي الإسلامي؛ إذ يتنازل باستمرار لمختلف قوى المجتمع معوضا فشله وذهاب ريحه، فهو بعد كل غزو يعمد إلى إسناد وظائف سياسية لقوى يرى فيها الإخلاص، بتغيير إدارة جديدة لقسنطينة، ثم حكام نقاوس بعد التخلص من محمد بن يحي شيخ أولاد عساكر، الذي نصبه الموحدون على نقاوس، و قد حسده الكاتب لما تحكم بها فوصفه بأن نقاوس " كانت له غنيمة باردة، فاستبدله وعيّن عليها قائدا واليا يأتمر بإمرته (ابن الحاج، 1990م :460)، وهذا التصرّف "الاستخلاف" لا يعدُّ ابتكار في شيء.

إن الزعامات العربية الهلالية من قبيلة بني رياح ؛ لا تريد إمداد المركز ولا التفاعل معه، مستأنسة من نفسها النزوع نحو الاستقلال، أو الحكم الذاتي الذي يضمن لها شخصيتها القبلية، المحددة في تعابير دلالية ومصطلحات" كأولاد، و وطن، وأحياء"؛ يغلب عليها الطابع القبلي، الذي يحدّد الولاء بالسيف والغلبة" ، يخرجها من مجال الدولة التراثي (عمارة، 2016م:20) ، كما يتحدد ولاءها وفق الظروف التي تتكيف معها ؛ فالتفت هذه القبائل ممن تفرع من جذم رياح حول يعقوب بن علي، وهو أحد أكبر زعمائها في تاريخ الرحلة وبعدها، (ابن الحاج، 1990م:389)، علما بأن التكيف الذي أبداه عليا هذا مع سياسة الجوار في ظل تصارع القوى المغربية التقليدية، من زيانية ومرينية، وحفصية، فكانت سياسة ابن مزني، وعلي الرياحي مع مختلف السلطات المركزية لبني حفص وبني زيان وبني مرين ناجحة إلى أبعد حد،(ابن خلدون،ج6،2003م، ص ص:496،497).

اعتمدت هذه الزعامات العربية على مواردها الخاصة من أجل ديمومة نفوذها، وتقوية سيطرتها(بادي،2017م:164)، في الزاب وأحواز الحضنة وأطراف **الأوراس آنذاك**، إنما حاصل في نظرها أنها تفرض نفسها كنظام بديل عن النظام التقليدي التوسعي نموذج المرينين ومن رغب في هذا النموذج من قبلهم، كما أن هذا النظام البديل تغلغل في مجالات اجتماعية معادية لها.

أمام هذا الواقع، فإن الغزو المريني لبلاد المغرب الأوسط والأدنى وفي فكر " السلطان أبي عنان" نفسه، في تقوية المركز؛ هو نفسه استعادة لاختصاصات –الخليفة تجاوزا-وحقه في توحيد الأطراف بالقضاء على الطغاة المحليين، وما الأوصاف التي أُلحقت بالعرب الهلالية المسيطرين على الزاب، وأطرافها ممثلة في أمرائهم إلا دليل على انحسار قدراته السياسية، فهم الأوباش والسراق، والمفسدون وأهل الفساد(ابن الحاج، 1990م:458)، كما أن أنه يسعى

لاستعادة المجد التوسعي و وراثة المجال والسلطة الموحدية، وإعادة إحيائها هو ؛ إنما هو ضرب من إصلاح فاشل، طالما حلم بتحقيقه الموحدون، ومن بعدهم أبو الحسن المريني، والد أبي عنان نفسه، وأنّ من تبنى المشروع "الوحد-توسعي" هي استراتيجية الحاكم "السلطان"، الخاضعة لمزاجه، قد لا يسعفها المجال والوقت، ويجنبها الحظ والممارسة ، نظرا لتغيرات هامة حدثت في الفكر والممارسة، ونمو عامل الاستقلالية الذي عصف بالدولة الإسلامية أيضا، (بادي، 2017م: 165).

أول هذه التغيرات التي حدثت في المجال الزابي، لم تكن لتحصل لولا استغلال قوة القبيلة خاصة عندما حدّ من نفوذ الزعامات القبلية ؛ منهم يعقوب بن علي على أوطانهم فيتحالف مع الحفصيين تارة ، وتارة وأخرى مع الخارجين عن السلطة الحفصية، بل يتحالف تماما مع بني حفص ضد المرينيين(ابن خلدون، ج6، 499)، فتفاعل المجال الزابي مع السلطة الحفصية سياسيا، وأصبح يتمتع بتسيير لا مركزي من زعامات محلية التي ضمنت لنفسها السلطة التي ربطتها بمصاهرات مع البلاط الحفصي نفسه ؛ بتزويج يعقوب ابنة أخيه سعيد لأبي زكريا يحي الحفصي، على نفس التوجه صاهر يعقوب بن علي خليفه وصديقه ابن مزني، بزواجه "علي بن يعقوب" لأخت ابن مزني، وحدث ان نشب نزاع بين السلطة المركزية الحفصية ضد عاملها على إمارة بسكرة ابن مزني الذي حاول الاستقلال عن سلطة الحفصيين بإظهار عدم الاعتراف بهم رافضا دفع الضرائب وقطع صلتهم به، فاستجاشت عليه وطابت المعونة من علي بن يعقوب، فمطالها بدهاء إرضاء لصهريه المتحاربين وفق اتفاق جريء(ابن خلدون، ج6، 501،502).

هل نجح المشروع المريني في مهمته هذه؟

يمكننا - تجاوزا - أن نقول بأن رحلته في مستوى اللحظة التاريخية(757هـ-1357م)، ضرب من ضروب التحدي لكنها في أتون الفكر القروسطي، تظل ملحمة باهته لم تغير من حركية التاريخ النشطة في توزيع السلطات في المجالات الممتنعة، أو مجالات التّماس؛ حفصي، زياني، مريني (ابن خلدون، ج6:490)، التي تظل مرتجعات تجربتها، من فترات تاريخية سابقة، والتجربة المرينية في الرحلة "الغزوة"، لا يمكننا الاستفادة من الناحية التاريخية، كما لا يمكن لنا التعويل عليها أنها واحدة من حركات توحيد المغارب، لهذه المفارقات الثلاث:

أ-والحركة السعيدة "الغزوة" وإن أريد لها تأمين السابلة والانتقام واحتلال قسنطينة وإعادتها للحاضرة المرينية، إضعافا لسلطة الحفصيين أصحاب تونس، واستمرار إلحاق الأذى بني عبد الواد التلمسانيين، فهو تدعيم للمركز ؛ واضطرار لمواجهة قوى اجتماعية ممثلة على الأقل في نخبة قوية من الأعيان التي لم تكن راضية عن بناء مركز قوي، أغضبهم وولّد فيهم شعورا بقدرة إعطاء بديل هامشي

قوي اعتمادا على تحالفات رغم ما لحق بها من أذى، تبعا لما أصاب قصور هم وحصونهم والقصبات، من تعفية وإعمال النار بها وتخريبها تماما(ابن خلدون،ج6،ص ص:472، 518)، فهي سياسة تقليدية عبّرت عنها السلطة المنتقمة بالأرض المحروقة، فينمو الرفض لدى القوى الطرفانية الناشئة، الذي اعتبرته تقليصا لمهامها وانتقاصا من دورها في مجالها الطبيعي ووظيفتها المحورية التي تكفلت بها؛ وهو تطور طبيعي بفرض الواقع التاريخي، وضحوا بممتلكاتهم وتركوها لتعبث بها أيادي المركز المتوحش؛ إذ عمل سلطان المرينيين على تحطيم القصور التي توسّع في بنائها الهلاليين من رياح، (ابن الحاج، 1990م:418؛420،419، وابن خلدون ج7، ص:353).

ب- إن هذه الحركة السعيدة "الغزوة"، تصب في خانة الأعمال الكبرى للسلاطين لغرض امتداحهم، إذ لا يمكن اعتباره إصلاحا في منظومة الحكم و علاقات المركز بالأقاليم، أو الأطراف، فهي لم تخلق منافسة بين النخب الاجتماعية-الاقتصادية، بل عمّقت تأزيم هذه العلاقات وخلقت نوعا من تحالف الأطراف كفكر وممارسة ناشئة، ضد ممارسات المركز التقليدي الذي يزال يحتفظ بأدوات بالغة في الفشل، فتغيير أسماء الجباة، أو تعين العمال الجدد، لا يعني إصلاحا لوضع فاسد، أو تحقيق الهدف توحيد السلطة (ابن الحاج، 1990م:460)، بقدر ما هو تكريس لخدمة المركز وإخضاع الأطراف النامية بفعل تغير طرأ في الفكر والممارسة.

ج-العنصر الهلالي لا يمكن ربطه بالتخريب، أو الإفساد، بل لعب دور بناء من خلال اختطاط القصور وممارسة سلطة اجتماعية تقليدية قائمة على اساس الولاء الضريبي، فضلا على أنه ربط المنطقة بالثقافة السائدة" الهوية الثقافية" المبنية على المذهب المالكي وتعزيز تواجد اللغة العربية (عمارة، 2016م:21).

د- مجتمع المغرب في عمومه مجتمعا قبليا بنشوء قبائل متحالفة حينا ومتطاحنة حينا آخر، والوحدة الاجتماعية أساسها القبيلة تكبر بالتحالف أو بغيره، تكتسح مجالا جغرافيا واسعا تصبح قوة عسكرية سياسية يقف أفرادها في وجه المغيرين من أبناء القبائل الأخرى، أو المهاجمين من أنصار السلطة الحاكمة(عاصي،1991م :69)، وهذا العامل أفضى إلى الاعتداد بعوامل أخرى متداخلة من اقتصادية وجغرافية ، تتفاعل مع العامل السياسي الاجتماعي باعتبار الدولة حينها كانت عبارة قبيلة تمكنت من كسب ولاء قبائل أخرى بطابع قوة شكيمتها أو تحالفها، يتسع نفوذها بكثرة رجالها الذين يراقبون المجالات القبلية، بحسب دورهم في الجندية أو في الإدارة، لتستقر الولاءات بما تتحصل عليها القبيلة من عائدات اقتصادية كالغنائم أو الضرائب(عاصي، 1990م:75).

فالظروف لم تكن في صالح المركز المريني الذي فشل في بناء مركزه، لما فقد سلطة فرض الضرائب، و تلاحمت روابط التحالف بين النخبة التقليدية والفلاحين(بادي،2017م :167)، وللتوضيح أكثر فالحاصل في هذه الرحلة الغزوة، انقلاب في موازين القوى بين المركز والأعيان، واضحت مسألة توفير الأمن مقابل الضرائب، لم تعجب الأعيان لأن الضرائب تدعم سلطتهم، ولا الفلاحين أيضا فهم أي "الفلاحين" يحصلون على حاجاتهم الأمنية داخل مجتمعاتهم القروية، ومن داخل القبائل نفسها، هذا ما تكشف عنها السياسة العقارية التي منحت جدوى هذه التنظيمات في شكل محاولات خاصة لإقامة إدارات محلية، يديرها حاكم يعينه السلطان، فيجد نفسه عاجزا عن قيام بعمل سياسي، فاضطر للاستعانة بالأعيان، إذ كيفوا الموقف بتعطيل تنظيمات المصالح المضادة التقليدية، فازداد ثراؤهم وتوسعت سلطاتهم الاجتماعية والاقتصادية، فجاء التحالف مع رجال الدين في أحيان كثيرة في مجال تعبئة السكان ضد المركز، والنموذج من الزاب حركة سعادة الصوفية ، التي عملت على نشر أفكارها لتربط المنطقة بشبكة من صوفية (ابن خلدون، ج6:514)، وربط المجال الزابي فتكون النتيجة القاصية نمو الحيز الاجتماعي السياسي وبدء تكونه كنظام جماعي متكامل للعمليات الاجتماعية يواجه السياسة المركزية، ويبطل مفعولها، وإفشال احتكارها للتشريع والتنظير ، كما يعمل هذا النظام الناشئ على إزاحة الأنظمة المصطنعة والهشة المساعد للنظام المركزي البائد، فعدم التوازن بينهما يعني عدم التساوي في المنجزات الحضارية.

خاتمة ونتائج الدراسة

في ختام هذه الدراسة المختصرة، وبناء على ما تقدم، نلخص إلى:

- إن تاريخ الزاب بالرغم من تناقضاته، فقد تميّز بالاستمرارية على المستوى البشري على الأقل، بالرغم من الاثنية العرقية التي تفاعل فيها المجال، وحدوث تماس وحوار شبه مضطرب بين القوى المحلية والقوى المركزية، فضلا عن الإشارات الواضحة من استحواذ العرب الهلالية من فرع رياح؛ والذواودة على المشهدالزابي، منذ القرن (5هـ/11م)، على حساب زناتة البربرية.

- إن درا سة التطور التاريخي وفق رحلة ابن الحاج يحيلنا إلى ر سوخ تقاليد النظام الإمبراطوري المبني على إفشال الأطراف في مقابل دعم المركز ، اعتمادا على آليات الرهن وسياسة الأرض المحروقة، وتحول الزاب إلى إمارات عربية مستقلة لاحقا في فرع بني مزني كان بمثابة الردّ البين على أن هذا الفرع الهلالي بما خلفه من معمار لجدير بصنع الحضارة بعد الاستقرار والتحكم في موارد المنطقة، وإذا علمنا أن يعقوب بن علي ، بعد ذهاب غبار الرحلة السعيدة وعودة أبي عنان للمغرب الأقصى الذي نسي مصطلح الرحلة السعيدة وبدأ بمعالجة أوضاعه الداخلية المضطربة التي عجلت برحيله.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المراجع باللغة العربية

1. ابن الخطيب، لسان الدين، (د ت)، *الإحاطة في أخبار غرناطةج4*، تحقيق عبد اللّه عنان، القاهرة.
2. ابن خلدون، عبد الرحمن، (2003م)، *تاريخ ابن خلدون، العبر*، م6، ط2، بيروت، دار الكتب العلمية
3. ابن مرزوق التلمساني، محمد، (2012م)، *المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا الإمام أبي الحسن*، تحقيق ماريا خيسوسبيغارا، المغرب، دار الأمان.
4. برتران، بادي، (2017م)، *الدولتان السلطة والمجتمع في الغرب* وبلاد الإسلام، ط1، مصر، مدارات للأبحاث والنشر.
5. بلعربي، خالد (أوت ،2015م)، *الغزو المريني لقسنطينة*، مجلة عصور الجديدة، عدد 18.
6. خير الدين، محمد، (2000 م)، مذكرات، ج1، ط2، الجزائر، مؤسسة الضحى
7. زردومي، اسماعيل، (سبتمبر 2005م)، *تقنيات السرد في رحلة فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الرحلة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، لابن الحاج النميري*، مجلة العلوم الإنسانية، بسكرة.
8. ز ياني، الصـــادق (جوان ،2018م)، *جغرافية العمران ببلاد الزاب من خلال رحلة فيض العباب للنميري، قصر عثمان الرياحي نموذجا*، مجلة ميلاف للبحوث والدراسات، م4، عدد1.
9. الســلاوي، الدرعي، أبو العباس (د.ت)، *الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى*، اعتنى به محمد عثمان، ج2، بيروت، دار الكتب العلمية.
10. الشاهد، الحسن، (1990م)، أدب الرحلة في العصر المريني، ج1و2، ط2، الرباط، دار القلم.
11. عاصي حسين، (1991م)، ابن خلدون مؤرخا، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.
12. عبد القادر مباركية، (2015)، بين جبل الأوراس والواحات: ظهور وانتشـــار واختفاء الجماعات الإباضـــية بالزاب (ق2-3/8-9م) -علاوة عمارة، مجلة المعارف للبحوث والدراســـات التاريخية، الوادي، ع9.
13. عمارة علاوة، (2016م)، التحولات المجالية والطبونيمية لبلاد الزاب من الفتح الإســـلامي، إلى نهاية القرن 8ه/14م، مجلة تراث الزيبان.
14. عمارة، علاوة، (2018م)، بين جبال الأوراس والواحات: ظهور وانتشار واختفاء الجماعات الإباضية
15. النميري، ابن الحاج النميري، (1990م)، فيض العباب وإفاضـة قداح الآدابب في الحركة السـعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وتحقيق، محمد ابن شقرون، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
16. الهطاي، علي، (2017م)، ديســمبر، الجغرافية التاريخية لبلاد الزاب من الفتح الإســـلامي إلى منتصـــف القرن الخامس الهجري/الحادي عشـــر الميلادي: دراســـة في تطور المجالات والمواقع، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، عدد 12.

ثانيا: المراجع باللغة الاجنبية

17. Cambuzat Paul-Louis, (1986), *L'évolution des sites du tell en Ifriqya du VII au IX siècle,* Alger, OPU, 2vol.